

## لا ضرر ولا ضرار حماية البيئة فريضة شرعية

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أصبحت قضية البيئة بمشكلاتها المتعددة بدءاً من تلوثها، واستنزاف مواردها، وصولاً إلى الإخلال بتوازنها، حديث العالم كله.

### حتى قال بعض الباحثين:

لو كان للبيئة لسان ينطق، لصكت أسماعنا صرخات الغابات الاستوائية التي تحرق عمداً في الأمازون، وأنين المياه التي تخنقها بقع الزيت في الخلجان والبحار، وحسرة الهواء المختنق بغازات الدفينة والرصاص في المدن الكبرى.

إن البيئة خلقت مهياً لتحقيق مصلحة الإنسان وتوفير حاجاته، وإن الله تعالى خلقها بطريقة تفرض عليها أن تتكامل وتتعاون مع بعضها البعض، ومن ثم فالحفاظ على أن يؤدي كل من مكونات البيئة دوره المنوط به يعتبر أمراً شرعياً، وذلك حتى لا يحدث خلل في الكون.

والناظر إلى الإسلام عقيدة وشريعة يجد أن رعاية البيئة تتصل بعدد من العلوم الإسلامية، وفي مقدمتها علم أصول الدين الذي يرى أن البيئة مخلوقة مثل الإنسان وأنها مكلفة بالسجود لله تعالى وتسبيحه ولكن بطريقة يعلمها الله تعالى، فالإنسان ليس إلهاً في الكون ولكنه مخلوق مثل بقية الأشيء المحيطة به، إلا أن الإنسان مميز عليها بالعقل وبالإرادة.

### لا ضرر ولا ضرار

وترتبط رعاية البيئة بعلم السلوك في الإسلام على اعتبار أن الدين في حقيقته هو السلوك والخلق، ولذا أعلنت النصوص الإسلامية الصريحة أن امرأة دخلت النار في فطة حبستها، وأن رجلاً دخل الجنة في كلب سقاها بعدما رأى ما فيه من شدة العطش.

بل إن الإسلام نظر إلى الأمور البيئية نظر ود وحب، فجعل القرآن الكريم الحيوانات والطيور أمماً مثل أمة الإنسان، ونص القرآن الكريم أن الشجر والدواب والجبال والنجوم تسجد لله تعالى مثل الإنسان المؤمن وأنها تسيح ربها.

ويرى علماء الأخلاق المسلمون الكون البيئية على أنه آية من آيات الله تستوجب من الإنسان التفكير فيها، وأنه نعمة تستوجب الشكر والمحافظة عليه والاستمتاع بعنصر الجمال فيه وتنمية هذا الجمال؛ لأن كل شيء في البيئة من الضروري أن يظهر فيه بديع صنع الخالق سبحانه.

أما علم الفقه وأصوله فقد ارتبطا بالشأن البيئي ارتباطا كبيرا في حالة السلم والحرب على حد سواء، ووضع الفقهاء عددا من القواعد التي تنظم هذا الأمر مثل قاعدة "لا ضرر ولا ضرار"، وأن الشرع أتاح لولي الأمر فرض بعض العقوبات التعزيرية التي من الممكن اللجوء إليها في عصرنا الحالي لمن يسيئون إلى البيئة والمحافظة على البيئة داخلية في مقاصد الشريعة الخمسة وهي حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال، فإفساد البيئة إضاعة لمقاصد الشريعة الإسلامية.

## الركائز الإسلامية لرعاية البيئة

### التشجير والتخصير

فهناك آيات وأحاديث كثيرة تحض على الغرس والزرع، يقول النبي صلى الله عليه وسلم "من نصب شجرة، فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل" (رواه أحمد).

### العمارة والتثمير

ويأتي في مقدمتها إحياء الأرض الموات وتثمير الثروات وتنمية الموارد، ولذا اعتبر الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" أن عمارة الأرض أحد مقاصد خلق الإنسان، ولذا كان الحديث النبوي "من أحيا أرضا ميتة فهي له" (رواه أبو داود)، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتزع أرضا كانت مقطوعة إلى رجل يسمى "بلال بن الحارث المزني" لأنه لم يستطع أن يعمرها كلها.

### النظافة والتطهير

على اعتبار أن الطهارة من شروط بعض العبادات خاصة الصلاة، ولذا شاعت بين المسلمين مقولة "النظافة من الإيمان" وأوردت السنة النبوية آدابا كثيرة في النظافة والاعتسال والتطيب وحسن الهندام خاصة في المناسبات العامة كصلاة الجمعة والعيدين، وحثت على إماطة الأذى عن الطريق.

### المحافظة على الموارد

يقول تعالى: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها [الأعراف 56] والإفساد يكون بالإتلاف وتقويت المنافع أو التلويث والإسراف، أو بإشاعة الظلم والباطل والشر، ولذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا أن يذبح له شاة حلوبا. وفي السنة إنذار لمن يقتل طيرا أو حيوانا بغير منفعة أو يتخذ شيئا فيه روح هدفا للتصويب عليه، كما أن بها حثا على الاستفادة بجلد الميتة.

### الحفاظ على صحة الإنسان

وهناك حشد كبير من النصوص الإسلامية من قرآن وسنة يدعو إلى الحفاظ على الصحة بدءا من الدعاء بطلب العافية ومرورا بالوسائل التي تجلب العافية وتحافظ على سلامة البدن وحتى التعامل الإيجابي مع المرض في حالة وقوعه والمحافظة على البيئة حتى لا تنتقل عدوى المرض إلى الآخرين.

## الإحسان إلى البيئة

والإحسان كلمة تتضمن الإتقان والشفقة والإكرام، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُميل للقطعة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها، وكان بعض الخلفاء مثل عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عماله ألا يُحمّلوا الإبل فوق ما لا تطيق وألا يضربوها بالحديد.

ومن روائع حديث فقهاء المسلمين في الإحسان إلى الطير ما كتبه العلامة المغربي "أبو علي بن رحال" من ضرورة أن يتفقد الإنسان الطير الذي يحبسه كما يتفقد أولاده، وأن يضع لهذا الطير خشبة ليركب عليها الطائر حتى لا يضر الوقوف على الأرض بالطائر (لاحظ هنا مراعاة البعد النفسي والبيئي للطائر في شريعة الإسلام).

## المحافظة على البيئة من الإتلاف

ونهى الإسلام عن الإتلاف البيئي للأحياء والنباتات والعمران سواء كان ذلك بدافع القسوة أو الغضب أو العبث أو الإهمال أو في العمليات الحربية؛ لذا كان المؤرخ الفرنسي "جوستاف لوبون" يقول: "ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب" ومن يتابع الجرائم الأمريكية في فيتنام والعراق يتأكد من رحمة المسلمين بغيرهم وبالبيئة أثناء العمليات العسكرية والحروب.

## **وحتى نحمي البيئة ونرعاهها، منها:**

- تربية النشء على الوعي البيئي
- وتبصيره بحقيقة الموقف الإسلامي الأصيل من البيئة ورعايتها
- وتثقيف الجماهير عبر وسائل التثقيف المختلفة
- وإيقاظ الضمير الديني في رعاية البيئة

## **الخطبة الثانية :**

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له العزيز الجبار الرازق الوهاب ، البارئ الخالق جل جلاله ، واشهد ان محمدا رسول الله عبده ورسوله صفيه من خلقه وحبيبه الذي بلغ الرسالة وادى الامانة ونصح الامة وكشف الغمة ودعل البشرية إلى الدين القويم (ما فرطنا في الكتاب من شيء) افلح وفاز من تمسك بكتاب الله وسنته الشريفة.

أما بعد،

فيا أيها الإخوة المؤمنون المسلمون:

قال الله تعالى: هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها [هود 61].

قال علي كرم الله وجهه: ليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، فمن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد. من رسالة له رضي الله عنه إلى واليه في مصر.

البيئة أمانة وصلتنا من خالقنا نقية صافية رائعة نظيفة، فلنحافظ عليها كذلك، لتبقى ظرفاً ووعاءً مساعداً ومناسباً للإنسان حتى يحقق غاياته الخيرة التي خلق من أجلها، فإن شوّنها عاد الأثر الضارّ علينا وعلى كل بني جنسنا، فارتدوا أسفل سافلين... فهل يرضى عاقل بهذا ؟.

إن أكثر من سبعة آية قرآنية تناولت البيئة ومكوناتها التي ذكرناها آنفاً، وها نحن قد صنّفنا ما جاء في القرآن الكريم حول هذا فجعلناه قواعد ومعالم وملاح وهي:

- ربوبية الله عزّ وجلّ وجلّ للبيئة: فهو خالقها ومالكها وقبومها، والبيئة تسبّح الله ويستفيد الإنسان منها وفق معايير مشروعة وطرق سليمة: قال تعالى: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم. [البقرة: 21-22]
- وقال تعالى: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّز من تشاء وتذلّ من تشاء [آل عمران: 26].
- وقال تعالى: وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: 44].
- وقال تعالى: ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة [لقمان 20]. وقال تعالى: ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض [الحج 65].
- خلق الله الإنسان من مكونات البيئة الطبيعية (عالم الطبيعة) قال تعالى: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين [المؤمنون 12]. وقال تعالى: ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون [الروم 20].
- استخلف الإنسان على البيئة الطبيعية ليفيد منها بعدل وإحسان، قال تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش﴾ الأعراف: 10. وقال تعالى: الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك بأمره ولتنتبغوا من فضله ولعلكم تشكرون [الجاثية 12].
- من غايات العبادة الصرفة التحقق بحسن القيام بالاستخلاف الأنف الذكر، قال تعالى: ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم [المائدة: 66]. وقال تعالى: وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً [الجن: 16].
- تحذير الإنسان من فعل ما يؤدي إلى الإفساد والتغيير في مكونات البيئة الطبيعية: قال تعالى: كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين [المائدة 64]. وقال تعالى: ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون [الشعراء 151-152].
- والفساد: تلوث بكل أنواعه وإسراف وتغيير في طبيعة مكونات الطبيعة. وكل ذلك مرفوض مرفوض مرفوض فيما أيها الناس انتبهوا ويا أيها المسلمون أفيقوا ويا بني البشر استيقظوا.

إذا كانت البيئة الطبيعية أو عالم الطبيعة كما أسميناها سالفاً تتكون من الحيوان والنبات والماء والتراب المتشكل مرافق عيش، فإن الحديث النبوي الشريف عامة شمل كل هذه المكونات بدعوة الإنسان إلى رعايتها والعناية بها واستخدامها بأناقة وإحسان ضمن مسار يحقق غايات نبيلة خلق الإنسان من أجلها فلنعرض ولنبين ما جاء وفق ما يلي:

الدعوة أكيدة وجادة للرفق بالحيوان

فما أكثر الأحاديث النبوية الواردة في هذا الشأن وحسبنا أن نذكر بعضاً منها: فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرّب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر) رواه البخاري. وقال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض) رواه البخاري.

### بذل غاية الجهد للعناية بالنبات والمزروعات

وفي هذا المجال أحاديث كثيرة منها على سبيل المثال ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة (رواه البخاري) وأيضاً ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها فإن لم يفعل فليمسك أرضه (رواه البخاري).

### الماء نعمة كبرى فارعها أصلاً ووصفاً حسناً

فلا إسراف لأن الإسراف في استخدام الماء واستعماله حرام حرام، ولا تلويث والتلويث للماء رذيلة وجريمة وقد قال عليه الصلاة والسلام: سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته، من علم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس شجرة أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو ترك ولدأ يستغفر له بعد موته (رواه صاحب الترغيب والترهيب)، وقال أيضاً: لا يبولن أحدكم في الماء الراكد (رواه مسلم)، وقال أيضاً: إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء (رواه البخاري).

### حماية المرافق العامة والعناية بها مطلب إسلامي

وفي هذا المضمار يقول صلى الله عليه وآله وسلم: الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان (رواه مسلم).

وروى الترمذي أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك فأخذه فشكر الله فغفر له.

وفيما يتعلق بالجسم فقد قال محمد صلى الله عليه وآله وسلم: الله تعالى على كل مسلم حق أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً (رواه البخاري)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ولولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة (رواه البخاري).

وأما الطعام والشراب وضرورة العناية بهما وإيعادهما عن التلويث وما يؤدي فقد جاءت في ذلك أحاديث كثيرة.